إنطلاقاً من الواقع الجديد

أنطوان مقدسي

صار من الواجب علينا أن نقول الحقيقة بصراحة فجة، مهما كلّف الثمن:

ان المعارك الكثيرة التي تخوضها الأمة العربية على جبهاتها الداخلية والخارجية، منذ سنوات، ومنها بالدرجة الاولى معارك لبنان منذ ١٣ نيسان عام ١٩٧٥، وذروتها الغزو الاسرائيلي الأخير، هذه المعارك هي مجموعة هزائم للقوى والمنظمات والايديولوجيات التقدّمية. ويكفي أن نذكر في معارك لبنان هذه الظاهرة التي ألفناها الى حد صارت تبدو معه وكأنها طبيعية، مع أنها أكثر الظواهر انحرافاً ـ وايلاماً للنفس ـ وهي أن العدو لم يكتف بجرّ القوى التقدمية الى المعركة في المكان والزمان اللذين اختارهما، بل وأعطى هذه القوى الشكل الذي يريد، أقصد أنه صاغها على صورته ومثاله إذ جعل منها قوى طائفية تنادي بالتقدم. أجل قوى طائفية تقدُّمية، كأن تقول: هذه دائرة مربعة.

فكل الأمور تجري وكأن لبنان الذي كان منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى سنوات قليلة خلت، نقطة انطلاق العروبة ـ والوحدة العربية ـ سيكون نقطة انطلاق تشرذم القوى العربية وتحوُّل الدولة العربية الواحدة، أمل المناضلين العرب منذ قرن ونيف، الى دول اقليمية: هنا تأخذ شكلاً طائفياً، وهناك شكلاً عرقياً أو ثقافياً أو ما شئت من ألوان التجزئة والتفرقة والتنابذ فالتناحر على البقاء..

هذا الوضع العربي معروف، يعرفه الحاكم والمواطن، العالم والجاهل، الغني والفقير... كلنا نعرفه، كلنا نرفضه.

وكلنا يسأل: ما السبيل الى تجاوزه؟

فمن واجب المثقف ان يسائل عن دوره هو ـ وبما هو مثقف ـ في عملية التجاوز هذه. وأقول مسبقاً ان هذا الدور كبير. كان في الماضي كبيراً وسيكون في المستقبل، بعدُ، أكبر إذا كان المثقفون بمستوى مسئولياتهم. فالمثقفون في بلد متخلف قوة هائلة يحسب حسابها الحاكم فيسعى الى وضعها بجانبه، كما يحاول الأجنبي تحييدها وعزلها بوسائل شتى لا مجال لذكرها الآن.

لنلاحظ على سبيل المثال أن الحركات الثورية الكثيرة والانقلابات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي توالت على هذا الوطن منذ قرن (ثورة عرابي) الى أيامنا كانت بنتيجة عاملين متكاملين ومتلازمين:

الأول: بروز قوى شعبية جديدة.

الثاني: دخول هذه القوى ساح المعركة بفضل فئات مثقفة تمكنت من تنظيمها وتوجيهها.

ذلك شأن المنعطفات التاريخية كلها، تحصل من التلاقي فالتلاحم بين طاقة وعقل.

فالكلمة الاولى والأخيرة لقدرة العقل على القراءة.

والذي يسترعي الانتباه حقاً في الوضع الفكري العربي هو أن فكرنا ما يزال يعيش حتى الآن على ايديولوجيات وضعت في أواسط الأربعينات وتبلورت بخطوطها الكبرى أو بمفاهيمها الأعم في أوائل الخمسينات، في حين أن ميزان القوى تبدل، على الساحة العربية، مرة، مرتين، ثلاث مرات... وربما أكثر، خلال الثلاثين سنة الفائتة.

ان الافكار تتحول في مرحلتنا ـ مرحلة تسارع التاريخ ـ من تقدمية الى رجعية بأسرع مما يتحول البشر، افراداً وجماعات، وما أكثر ما يتحولون!

فمفاهيم الأربعينات والخمسينات كانت في حينها تقدمية بدليل أنها مكنت القوى الشعبية من أن تلعب دورها الحاسم في تحرير الأرض وايقاظ الجماهير وطرح المسألة الاجتماعية، الخ...

أما الآن فهي شهادات حسن حال وبراءة ذمة تعطى لكل من يدفع الثمن، وتستخدم في أحسن الحالات لسدّ فراغات الصحف والمجلات.

المفاهيم رصيد.

فعندما تنفصل عن الواقع تصبح كالعملة التي فقدت تغطيتها.

فلا تستغرب إذا لاحظت أن الايديولوجيات الرجعية أخذت تستهوي الشباب أكثر بكثير من الايديولوجيات التقدمية.

الثقافة في البلدان المتقدمة مهنة.
وفي البلدان المتخلفة رسالة.

فعندما تتردى لتصبح أداة تزلّف لهذا الحاكم أو ذاك، أو أداة ارتزاق، يفقد ابن الشعب ثقته بذاته ويكفر بها وبكافة القيم.

وتفقد بذلك الجماعة قدرتها على قيادة ذاتها فتتشرذم. وعندها يفتش الشباب المتعطش الى المغامرة والبطولة عن مثل عليا يسيرون على هديها فلا يجدونها الا في الماضي.

بهذا تنتقل المبادهة من التقدم الى الرجعية

ان المثقف هو أول وخير من يعرف تقصيره.

وهو الذي يبادر الى الحديث عنه، ليشدّد على اسبابه، وهي معروفة جداً، كُررت بكافة الألسن وفي كافة الأزمنة والأمكنة، وتتلخص في انعدام الشرط الأول والأساسي والوحيد لنشوء الفكر، ألا وهو حرية الرأي والتعبير عنه التي تكاد تكون معدومة في كافة الأقطار العربية.

هذا صحيح.

ولكن استمعْ الى الحاكم وهو يشرح لك الأسباب التي دفعته مرغماً الى تقليص فسحة الحريات ترَ أن الحق بجانبه أيضاً. أو يمكن أن تتعدد الآراء وتتناقض وتتصارع في نقاش لا ينتهي والبلد محاصر والعدوّ على الأبواب؟ أولاً تقتضي الضرورة الملحّة في ظرف كهذا توحيد الآراء والصفوف في جبهة واحدة تتصدى للعدو؟

هذا أيضاً كلام معقول.
فالدائرة مفرغة.
وستبقى كذلك إلى أمد طويل على ما يبدو: المثقف يتهم الحاكم، والحاكم المثقف. والحاكم أدرى باسباب الاتهام من المثقف وأبرع في ادارتها..

والدائرة هذه، والاتهام هذا قديمان في عالم الانسان، قدم هذا العالم، قدم الصراع - الحوار بين المثقف والحاكم، تارة ترجح كفة الصراع وطوراً كفة الحوار.

فمن واجب المثقف أن يحوّل باستمرار الصراع الى حوار.

وليس هذا بالأمر الممتنع، إذا كان المثقف يؤمن حقاً بأن الثقافة رسالة، لا مكاسب فردية صغيرة يمنُّ بها عليه هذا الحاكم أو ذاك. وكل المكاسب مهما كبرت بمقياس الرسالة صغيرة. وبتعبير أوضح، فإن روح التضحية هي التي تجعل الحاكم ينظر الى المثقف نظرة الندّ للندّ. ومتى طغت روح الكسب على التضحية تحوّل المثقف الى رعاع في نظر الحاكم.

ليس المطلوب في المرحلة الراهنة من المثقف العربي التقدمي - إذا كان يؤمن حقاً بالعروبة والتقدم - بالأمر السهل. فثمة صعوبتان كبيرتان متلازمتان تعترضان سبيله.

الاولى ذاتية، وتفترض تعليق الايديولوجيات الموروثة كلها، فقد صارت في واد والواقع في واد.

الثانية موضوعية وهي اعادة قراءة الواقع العربي بدون أية فكرة مسبقة واستنباط المفاهيم التي تقوله، هو كما هو.

يعز على المرء أن يحطم ما آمن به حياته كلها. يعز عليه أن يعترف بأن الآلهة التي عبدها أصنام.

فمثلاً مفهوم الأمة الواحدة الذي يبدو لنا للوهلة الاولى واضحاً كل الوضوح تفرّغ في الواقع من كل مضمون وفقَد بذلك قيمته الاجرائية لأن القوى التي تتجابه على الساحة العربية (وهي مضمونه الحقيقي) تبدلت جذرياً عما كانت عليه في الستينات وحتى في السبعينات. وعقلنا ما يزال يحاكم الأمور وكأننا على ليالي الوحدة بين مصر وسورية. فما هي هذه القوى؟ ما دور كل منها؟ كيف تتلاقى وتتصارع، فتهادن وتستأنف الصراع؟ كيف ينفذ اليها الأجنبي ويحركها؟ إنما الجواب عن بعض من هذه الأسئلة - في مجال الأمة وفي المجالات الأخرى الكثيرة - يحتاج الى دراسات طويلة يفضل عقلنا اختزالها باحلال الكلمات الكبيرة (ومنها الواقعية والالتزام بالواقع!) محل الواقع.

والنتائج ما علمت! في لبنان وفي غير لبنان.

ان دراسات كهذه، وحدها، تستطيع أن تقوّم اعوجاج السياسة والسياسيين والأحزاب السياسية، على الخصوص إذا تراكمت وشكلت تراثاً، على الضبط كما جرى في الأربعينات والخمسينات.

ولا أعتقد أن سياسياً، كائناً من كان، سيتنكر لها كلياً الا اللهم إذا كان من سلالة ابليس!

دمشق